بسم الله الرحمن الرحيم

سورة الأنفال

﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِۖ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِۖ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَصْلِحُواْ ذَاتَ بَيْنِكُمْۖ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۝١﴾

هذه هي بداية سورة الأنفال المدنية.

والسورة تهتم بتربية الجماعة المسلمة علىٰ منهج الله، وتُعِدُّها لقيادة البشرية للعمل بهذا المنهج الرباني.

وقد نزلت في غزوة بدر الكبرىٰ، في شهر رمضان من العام الثاني للهجرة النبوية، لمَّا اختلف المسلمون في الغنائم بعد المعركة.

فقال الشباب: هي لنا؛ لأنا باشرنا القتال، وقمنا به، وقال الشيوخ: هي لنا؛ لأنا كنا حماية لكم تحت الرايات، ولو انكشفتم لرجعتم إلينا، فلا تأخذوها وحدكم.

وهنا: نزل ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِۖ﴾، والمعنىٰ: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ﴾ يا محمد عن الأنفال، والأنفال: هي غنائم الحرب. وسمِّيت بالأنفال؛ لأنها نفل وعطية من فضل الله تعالىٰ.

﴿قُلِ﴾ لهم: حكم الأنفال ﴿لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِۖ﴾ يأمر الله فيها، وينفِّذ الرسول، ويقسم كما أمر الله، وليس ذلك لأحد آخر.

ثم يأمر الله المؤمنين بثلاثة أوامر ـ مهمة جدًّا في موضوع «الجهاد في سبيل الله» ـ الذي هو خط السورة العام:

يـأمـر أولًا : بالتقوىٰ، فيقول: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ أي: في تنفيذ أوامره، واجتناب نواهيه؛ حيث إن الجهاد بدون تقوىٰ الله ليس بجهاد.

ويــأمر ثانيًا: بـإصـلاح ذات الـبيـن، فـيـقـول: ﴿وَأَصْلِحُوا۟ ذَاتَ بَيْنِكُمْ﴾ أي: أصلحوا ما بينكم، حتىٰ تكونوا مجتمعين علىٰ أمر الله ورسوله، في إلفة ومحبة واتفاق؛ حيث إن الجهاد يحتاج إلىٰ وحدة صف، ومن ثم فلا بد من إصلاح ذات البين.

ويــأمر ثـالثًا: بالطاعة لله والرسول ﷺ، فيقول: ﴿وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ﴾ أي: في كل ما يأمر به الله ورسوله؛ حيث إن الجهاد يحتاج إلىٰ انضباط، والانضباط هو الأساس في الجهاد، ولا انضباط بدون طاعة الله ورسوله.

ثم يقول تعالىٰ: ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ أي: فالتزموا بهذه الأوامر الثلاثة المذكورة.

وبعد ذلك يحدد ربنا سبحانه وتعالىٰ صفات المؤمنين الحقيقيين، الذين يقوم بهم «الجهاد الإسلامي » فيقول:

﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾﴾

أي: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ الكاملون في إيمانهم، هم ﴿ٱلَّذِينَ﴾ يتَّصفون بهذه الصفات الخمس: ثلاث قلبية، وواحدة بدنية، وواحدة مالية:

الصفة الأولىٰ: قلبية ﴿إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ يعني: فزعت وخافت من وعيده، واستعظمت وتهيَّبت من جلاله.

الصفة الثانية: قلبية ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ﴾ أي: القرآن ﴿زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا﴾ ازدادت قلوبهم بها اطمئنانًا ويقينًا بالله تعالىٰ.

الصفة الثالثة: قلبية ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ أي: يعتمدون عليه، ويفوِّضون أمورهم إليه، لا يرجون سواه، ولا يطلبون إلَّا منه، ويعلمون أن ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن؛ فيسلِّمون الأمر إليه.

الصفة الرابعة: بدنية ﴿ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ أي: يحافظون عليها في مواقيتها، وكيفيتها، وشروطها، والإخلاص لله فيها.

الصفة الخامسة: مالية ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ وذلك يشمل الزكاة، والصدقات، وسائر حقوق العباد، من واجب ومستحب.

ثم يبيّن ربنا تبارك وتعالىٰ: أن المتصفين بهذه الصفات الخمس، هم ﴿ٱلۡمُؤۡمِنُونَ حَقّٗاۚ﴾ [الأنفال: ٤] .. فيقول الله عز وجل:

﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ حَقّٗاۚ لَّهُمۡ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمۡ وَمَغۡفِرَةٞ وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ ۝٤﴾

يعني: هؤلاء الموصوفون بهذه الصفات المذكورة ﴿هُمُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ حَقّٗاۚ﴾ أي: إيمانًا صادقًا لا شك فيه، ولا تردُّد به.

هؤلاء ﴿لَّهُمۡ﴾: ﴿دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمۡ﴾ أي: منازل ومراتب ومقامات، بعضها فوق بعض، علىٰ قدر أعمالهم وإخلاصهم فيها.

﴿وَمَغۡفِرَةٞ﴾ لسيئاتهم وخطاياهم التي كانت منهم بحكم بشريتهم، ﴿وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ﴾ في الجنة، خال من الجهد في كسبه، أو الخوف من انتهائه.

ونلاحظ: أن الآيات بهذا الشكل، رفعت الهمم والعزائم لكل لوازم الجهاد في سبيل الله، وعالجت كل عوامل الخذلان، والخلاف، ودعت إلىٰ الطاعة، والارتفاع إلىٰ درجات الإيمان الكامل.

ثم تدخل الآيات إلىٰ غزوة بدر وأحداثها، فيقول ربنا عز وجل:

﴿كَمَآ أَخۡرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيۡتِكَ بِٱلۡحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقٗا مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ ۝٥﴾

والمعنىٰ: ﴿قُلِ ٱلۡأَنفَالُ﴾ استقرت ﴿لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِۖ﴾ [الأنفال: ١] بالحق، بعد خلافكم حولها ﴿كَمَآ أَخۡرَجَكَ رَبُّكَ﴾ يا محمد ﴿مِنۢ بَيۡتِكَ﴾ في المدينة ﴿بِٱلۡحَقِّ﴾ للقتال ﴿وَإِنَّ فَرِيقٗا مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ﴾ لهذا القتال، لعدم استعدادهم له، مثلما كانوا كارهين لتوزيع الغنائم قبل تقسيم الله تعالىٰ لها. هذا الفريق كانوا:

﴿يُجَٰدِلُونَكَ فِي ٱلۡحَقِّ بَعۡدَمَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلۡمَوۡتِ وَهُمۡ يَنظُرُونَ ۝٦﴾

يعني: ﴿يُجَٰدِلُونَكَ فِي﴾ القتال، لعدم استعدادهم له، والقتال هو ﴿ٱلۡحَقِّ﴾، وكانوا يجادلونك ﴿بَعۡدَ مَا تَبَيَّنَ﴾ لهم الحق في القتال، وإعلامك لهم بأنهم سينصرون، وصار حالهم ﴿كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلۡمَوۡتِ وَهُمۡ يَنظُرُونَ﴾ وذلك لقلة عددهم، وانعدام فرسانهم، وكثرة عدوهم، وقوة شوكتهم.

ومع ذلك: فقد كان في القتال كل الخير للإسلام والمسلمين.

ثم يذكِّر الله عز وجل المؤمنين بما وعد به رسوله ﷺ، فيقول:

﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧﴾ لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ وَيُبْطِلَ ٱلْبَٰطِلَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٨﴾﴾

أي: واذكروا يا مسلمون ﴿إِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ﴾ نوال ﴿إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ﴾ القافلة، فتأخذونها بما فيها من أموال، أو الجيش، فتنتصرون عليهم وتغنمون منهم، وكنتم ﴿تَوَدُّونَ﴾ وترغبون ﴿أَنَّ﴾ تكون لكم القافلة ﴿غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ﴾ أي: غير ذات السلاح والحرب ﴿تَكُونُ لَكُمْ﴾ ﴿وَ﴾ لكن ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ﴾ غير ذلك، فهو يريد ﴿أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ﴾ ويعليه ويثبِّته ﴿بِكَلِمَٰتِهِۦ﴾ أي: بآياته المنزلة في محاربة ذات الشوكة، وهي الجيش الكافر، وذلك: لـ ﴿يَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ فيهزمهم، ويستأصلهم.

وما ذلك إلَّا ﴿لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ﴾ وهو الإسلام، فيظهره علىٰ الكفر، وينصر أهله علىٰ أعدائهم ﴿وَيُبْطِلَ ٱلْبَٰطِلَ﴾ وهو الكفر، فيمحقه، ويدحر أهله، حتىٰ ﴿وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ الكافرون إحقاق الحق الذي يكرهونه، وإبطال الباطل الذي يحبونه.

وعلىٰ ذلك: فليس الخير فيما تودون وتحبون أنتم، بل الخير كل الخير فيما يحبه الله ويريده.

ويلاحظ: أنه إذا كان الله تعالىٰ يحب القتال في سبيله، فينبغي أن يحبه المسلمون ويألفوه، ويحملوا أنفسهم عليه؛ حبًّا في الله، وطاعة له، ولرسوله.

ثم يُذكر الله تعالىٰ المؤمنين ـ أيضًا ـ بموقف من مواقف يوم بدر، فيقول:

﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّى مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴿٩﴾﴾

أي: اذكروا نعمة الله عليكم، وقت أن كنتم ﴿تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ﴾ أن ينصركم؛ لضعفكم، وقلة عددكم، ونقص عُدَدكم، وقوة عدوكم، وكثرة عَدَدِه وعُدَدِه، ﴿فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ﴾ أي: أجابكم، ولبّىٰ استغاثتكم، وكانت هذه الإجابة: بما يفيده

قوله: ﴿أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾ أي: سأغيثكم وأرسل لكم هذا العدد من الملائكة، متتابعين، يناصرونكم في قتال عدوكم.

﴿وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ ۚ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (١٠)﴾

أي: ﴿وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ﴾ وما جعل الله هذا الإمداد بالملائكة بعد استغاثتكم به: ﴿إِلَّا بُشْرَىٰ﴾ لكم بالنصر ﴿وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ﴾ أي: بهذا الإمداد بالملائكة ﴿قُلُوبُكُمْ﴾.

ولكن: إياكم أن تفهموا أن النصر من صنعكم، أو من مساعدة الملائكة لكم، بل الحقيقة التي ينبغي معرفتها جيدًا أنه ﴿وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ﴾ فقط، والمنصور: مَن نصره الله.

حيث ﴿إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ﴾ ينصر أولياءه ﴿حَكِيمٌ﴾ في شرع الجهاد لقهر أعدائه.

وعلىٰ هذا: فالواجب علىٰ المسلم ألَّا يتوكل إلَّا علىٰ الله فى جميع أحواله، وأن لا يثق بغيره، وأن يثق به وحده، وأن لا يتكل علىٰ قوته، وشدة بأسه، حيث إن الله تعالىٰ بيده وحده الإعانة والنصر.

يقول ربنا سبحانه وتعالىٰ عما حدث من مُبشِّرات في بداية المعركة:

﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ (١١)﴾

يعني: اذكروا من نِعَم الله عليكم وبشاراته بالنصر لكم ﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ﴾ أي: ينزِّل عليكم ليلة المعركة النعاس، وكأنه يغطيكم به ﴿أَمَنَةً مِّنْهُ﴾ فيجعله لكم أمنًا من الخوف من أعدائكم، ﴿وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ السَّمَاءِ﴾ صبيحة يوم المعركة بقدرته ﴿مَاءً﴾، وذلك ﴿لِّيُطَهِّرَكُم بِهِ﴾ من كل حدث ـ أصغر أو أكبر ـ أصابكم، ﴿وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ﴾ أي: وسوسته، التي تعذِّب نفوسكم، وتخويفه لكم من العطش لقلة الماء، ﴿وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ﴾ بالصبر، واليقين في النصر، ﴿وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ﴾ حتىٰ لا تسوخ في الرمل اليابس.

وكل هذا تذكير لهم بما في قدرة الله لمن توكَّل عليه، وقاتل في سبيله.

وهناك بشارات أخرىٰ في قوله تعالىٰ:

﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ۚ سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ فَٱضْرِبُوا۟ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ وَٱضْرِبُوا۟ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴿١٢﴾﴾

وهذه نعمة أخرىٰ وبشارة جديدة خفية: يظهرها الله تعالىٰ، ليشكره المؤمنون عليها، ولتتذكرها الأجيال؛ فيتوكلوا علىٰ الله، واثقين بنصره وتأييده في أية معركة للإسلام يدخلونها.

والمعنىٰ: اذكر أيها المؤمن ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾ الذين أنزلهم في بدر، قائلًا لهم: إنِّي ﴿مَعَكُمْ﴾ بالتأييد، والعون، والنصر، ﴿فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ۚ﴾ بتقوية قلوبهم، أو بتكثير عددهم، أو بتبشيرهم بالنصر.

ومن جهتي أنا ﴿سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ﴾ والهزيمة النفسية، ﴿فَٱضْرِبُوا۟ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ﴾ أي: الرؤوس فافلقوها، والرقاب فاقطعوها، ﴿وَٱضْرِبُوا۟﴾ كذلك ﴿مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾ أي: قطعوا أصابعهم، وشلُّوا أيديهم وأطرافهم، حتىٰ يعجزوا تماماً عن القتال.

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥۚ وَمَن يُشَاقِقِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿١٣﴾﴾

يعني: وما كل ﴿ذَٰلِكَ﴾ إلَّا ﴿بِأَنَّهُمْ﴾ أي: بسبب أنهم ﴿شَآقُّوا۟﴾ أي: خالفوا، وعاندوا وحاربوا ﴿ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥۚ﴾.

﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ في الدنيا ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ له في الدنيا والآخرة.

وما رأيتم وحدث لكم في المعركة لون من العذاب:

﴿ذَٰلِكُمْ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٤﴾﴾

أي: ﴿ذَٰلِكُمْ﴾ العذاب، بالهزيمة والخذلان في الدنيا ﴿فَذُوقُوهُ﴾ الآن، ﴿وَأَنَّ لِلْكَٰفِرِينَ﴾ فوق ذلك، عند الله ﴿عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ في الآخرة.

وفي الآيات التالية نداءات توجيهية لأهل الإيمان، وهذه التوجيهات: تستند إلىٰ دروس غزوة بدر. وهي ـ أي التوجيهات ـ تضع:

أولاً: دستور الحركة الجهادية المفروضة علىٰ المسلمين،

ثانياً: كما تضع: خطوات النجاح في هذه الحركة.

ثالثًا: الأساسيات التي تقوم عليها فريضة الجهاد وهي:

(١) الثبات في المعركة.

(٢) الطاعة.

(٣) الاستجابة المباشرة للأمر.

(٤) الحذر من الخيانة.

(٥) التقوىٰ.

هذه النداءات الإيمانية التي تحمل هذه التوجيهات الربانية هي:

النداء الإيماني الأول: حول ضرورة الثبات في المعركة، يقول الله تعالىٰ:

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلْأَدْبَارَ ﴿١٥﴾﴾

يعني: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ زَحْفًا﴾ في المعركة، وجهًا لوجه ﴿فَلَا﴾ تخافوهم، وتنهزموا أمامهم، و ﴿تُوَلُّوهُمُ ٱلْأَدْبَارَ﴾ أي: تفرُّون أمامهم، وتعطونهم ظهوركم، وتهربون منهم.

﴿وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٦﴾﴾

يعني: ومَن يفعل ذلك الفرار من ميدان المعركة: فقد عاد منها وعليه غضب من الله، وصار ﴿مَأْوَىٰهُ﴾ مصيره في يوم القيامة ﴿جَهَنَّمُ وَبِئْسَ﴾ هذا ﴿ٱلْمَصِيرُ﴾.

ولا ينجو من غضب الله وهذا المصير إلَّا مَن كان بهذا التولي ﴿مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ﴾ أي: مغيِّرًا لموقعه، كفن من فنون الحرب، أو خدعة من خدعه، وهو يريد هزيمة عدوه، أو كان ﴿مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ﴾ أي: منضمًا إلىٰ جماعة أخرى مقاتلة من جماعة المسلمين التي تقاتل هؤلاء الأعداء، فتصرُّفه حيلة من حيل الحرب.

وإذْ قد اتضح ذلك واستقر في النفوس: وجوب عدم الفرار، فاعلموا أن الفاعل الحقيقي لكل شيء هو الله تعالىٰ، حيث يقول:

﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ ۚ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ ۚ وَلِيُبْلِيَ ٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَآءً حَسَنًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٧﴾﴾

أي: اثبتوا يا أيها الذين آمنوا في المعركة، واطمئنوا، وثقوا في النصر، ولا تغتروا فإن الذين قتلوا من الكفار في بدر ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ﴾ أنتم بقوتكم ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ﴾ بقدرته، ونصره إياكم.

وإن الذين عَمُوا من الكفار في بدر ﴿وَمَا رَمَيْتَ﴾ يا محمد أعين القوم ﴿إِذْ رَمَيْتَ﴾ بالحصىٰ؛ لأن كفًا من الحصىٰ لا يملأ أعين الجيش الكثير ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾ حيث أوصل ذلك إليهم، وأعمىٰ به عيونهم.

وقد فعل الله ذلك من القتل والرمي، ليقهر الكافرين، ويهزمهم، ﴿وَلِيُبْلِيَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي يعطيهم ﴿مِنْهُ﴾ سبحانه ﴿بَلَآءً﴾ عطاءً ﴿حَسَنًا﴾ وهي الغنائم التي حصلوا عليها، والنصر الذي فرحوا به.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ﴾ للأقوال ﴿عَلِيمٌ﴾ بالأحوال.

﴿ذَٰلِكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٨﴾﴾

أي: ﴿ذَٰلِكُمْ﴾ القتل، والرمي، والعطاء الحسن للمؤمنين: حق، يضاف إليه ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ مُوهِنُ﴾ أي: مضعف ﴿كَيْدِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ أي: حقدهم، وتخطيطهم، وحروبهم.

ويلاحظ: أنه في إضعاف كيد الكافرين، وإعطاء المؤمنين العطاء الحسن: تثبيت لهم، وتقوية لنفوسهم، حتىٰ لا يخافوا من أعدائهم. فهل يفعلون؟

ثم يخاطب الله الكافرين ـ استهزاءً منه بهم ـ ليعلم المؤمنين بما يريد عز وجل، وليزيد في طمأنتهم، فيقول جل وعلا:

﴿إِن تَسْتَفْتِحُوا۟ فَقَدْ جَآءَكُمُ ٱلْفَتْحُ ۖ وَإِن تَنتَهُوا۟ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَإِن تَعُودُوا۟ نَعُدْ وَلَن تُغْنِىَ عَنكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْـًٔا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٩﴾﴾

يعني: أيها الكفار ﴿إِن تَسْتَفْتِحُواْ﴾ أي: تطلبون النصر ﴿فَقَدْ جَآءَكُمُ ٱلْفَتْحُ﴾ يعني: فقد جاءكم النصر للمسلمين عليكم.

﴿وَإِن تَنتَهُواْ﴾ عن عداوة الإسلام وأهله ﴿فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾.

﴿وَإِن تَعُودُواْ﴾ لعداوة الإسلام وأهله ﴿نَعُدْ﴾ لنصرة الإسلام وأهله عليكم، واعلموا أنه ﴿لَن تُغْنِىَ عَنكُمْ فِئَتُكُمْ﴾ أي جمعكم وعددكم مهما كانت ﴿شَيْـًٔا﴾ مما تريدون، حتىٰ ﴿وَلَوْ كَثُرَتْ﴾ فئتكم لتحقيق هذا الغرض، خاصة وأنكم لا تعلمون ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ بالنصر والتأييد.

النداء الإيماني الثاني: وهو حول ضرورة «الطاعة»، يقول الله تعالىٰ:

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَوَلَّوْاْ عَنْهُ وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ قَالُواْ سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٢١﴾﴾

يعني: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ على العموم ﴿أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ في كل شيء، ومن ذلك: القتال، ﴿وَلَا تَوَلَّوْاْ عَنْهُ﴾ أي: تعرضوا، أو تبتعدوا، أو تتهاونوا في هذه الطاعة خاصة ﴿وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ﴾ القرآنَ يتلىٰ عليكم، والرسول ﷺ يتحدث إليكم.

﴿وَلَا تَكُونُواْ﴾ أيها المؤمنون كالمنافقين ﴿كَٱلَّذِينَ قَالُواْ﴾ كذبًا ﴿سَمِعْنَا وَهُمْ﴾ في الحقيقة ﴿لَا يَسْمَعُونَ﴾ أي: لا يصدقون.

ثم يبيِّن ربنا سبحانه وتعالىٰ أن هؤلاء الذين يقولون: ﴿سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ شر الناس، وأسوأ أصنافهم، حيث يقول جل وعلا:

﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٢٢﴾﴾

أي: ﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ﴾ التي خلقها الله، وتدب علىٰ وجه الأرض، وهي بغيضة ﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾.

﴿ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾ الذين هم صمٌ عن سماع الحق، بكمٌ عن فهمه، وعدم تعقُّله، والنطق به.

وذلك: لأن كل دابة سواهم مطيعة لله فيما خلقها له، وأما هؤلاء فقد خلقوا لعبادة الله، ولكنهم كفروا.

ولذلك عاقبهم الله تعالىٰ بما يفيده قوله عز وجل:

﴿وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ ۖ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾﴾

يعني: ﴿وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ﴾ في هؤلاء البكم ﴿خَيْرًا﴾ من صدق، أو رغبة في صلاح ﴿لَّأَسْمَعَهُمْ﴾ سماعًا يفيدهم.

﴿وَ﴾ لكنه ﴿لَوْ أَسْمَعَهُمْ﴾ وصدَّقوا ﴿لَتَوَلَّوا۟﴾ وارتدُّوا بعد ذلك ﴿وَّهُم مُّعْرِضُونَ﴾ عن الإيمان، لعدم توافر الطاعة لديهم، وتكبرُّهم عن الحق يأتيهم.

النداء الإيماني الثالث: وهو حول ضرورة الاستجابة المباشرة لأمر الله ورسوله، يقول الله تعالىٰ:

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ۖ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾﴾

يعني: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَجِيبُوا۟﴾ فوراً ﴿لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ﴾ بالطاعة والانقياد لأمرهما ﴿إِذَا دَعَاكُمْ﴾ أحدهما ﴿لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ من أمر الدين، بالامتثال للأمر، والاجتناب للنهي؛ حيث إن ذلك فيه السعادة الكاملة، التامة، في الحياة الأبدية، ومن هذه الأشياء التي يجب تلبية الدعوة فيها فورًا الجهاد؛ لأن فيه: السعادة في الدنيا بالنصر، وفي الآخرة بالشهادة.

﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ﴾ فلا إيمان إلَّا بإرادته، ولا صلاح إلَّا بمشيئته، ولذلك: عليكم بالاستجابة الفورية، لأمر الله ورسوله؛ ليوفِّق الله قلوبكم للخير، ونفوسكم للصلاح.

خاصة: ﴿وَأَنَّهُۥٓ﴾ سبحانه ﴿إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ فيثيبكم علىٰ حسب سلامة القلوب، وإخلاص الطاعة، وسرعة الاستجابة.

أيضًا: ﴿وَٱتَّقُوا۟ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنكُمْ خَآصَّةً ۖ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢٥﴾﴾

أي: ﴿وَٱتَّقُواْ﴾ أيها المؤمنون ﴿فِتۡنَةً﴾ أي: معصية ﴿لَّا تُصِيبَنَّ﴾ بضررها ﴿ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمۡ خَآصَّةً﴾ بل تعم الجميع بهذا الضرر، المسيء والمحسن.

﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ﴾ إذا عاقب مَن خالفه.

ويلاحظ: أنه لابد إذن من تطبيق الإسلام كله بالاستجابة لله ولرسوله، وأنه لابد من قتال الأعداء.

وأنه: إذا لم تكن هناك استجابة، ولا أمر بالمعروف، ولا نهي عن المنكر، ولا قتال من أجل نصرة الإسلام، فإن المسلمين معرَّضون لكارثة تَحِلُّ بهم جميعًا.

ثم يأمر الله عباده المؤمنين أن يتذكَّروا نِعَم الله عليهم، فيقول عز وجل:

﴿وَٱذۡكُرُوٓاْ إِذۡ أَنتُمۡ قَلِيلٞ مُّسۡتَضۡعَفُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ فَـَٔاوَىٰكُمۡ وَأَيَّدَكُم بِنَصۡرِهِۦ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ﴿٢٦﴾﴾

وفي هذه الآية الكريمة: يذكِّرهم الله بحالهم قبل بدر، وحالهم بعدها فيقول: ﴿وَٱذۡكُرُوٓاْ﴾ حالكم ﴿إِذۡ أَنتُمۡ﴾ عددكم ﴿قَلِيلٞ﴾ وحالكم ذليل؛ حيث إنكم ﴿مُّسۡتَضۡعَفُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ أي: مكة، فقد كنتم ﴿تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ﴾ إذْ كانوا كلهم لكم أعداء، مضادين لدعوتكم، كافرين بها، ولكن الله عز وجل أنعم عليكم، نِعَمًا كثيرة، ﴿فَـَٔاوَىٰكُمۡ﴾ في المدينة، حيث أصبحت لكم وطنًا، ﴿وَأَيَّدَكُم بِنَصۡرِهِۦ﴾ علىٰ الكفار، يوم بدر، ﴿وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ وهي الغنائم الكثيرة، التي حصلتم عليها، بعد نصركم علىٰ أعدائكم، ﴿لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾ الله، علىٰ هذه النِعَم التي أنعم بها عليكم، ومن الشكر: أن تستجيبوا لله وللرسول في كل شيء.

يلاحظ: أن مجيء هذه الآية بعد الأمر بالاستجابة لله وللرسول، فيه تذكير لهذه الأمة بأن طريقها للقوة، والرزق، والرفاهية هو الاستجابة الفورية المباشرة لله وللرسول ﷺ.

كما أنها: إذا فكَّرت في غير هذا، فقد انحرفت عن الطريق السليم، وهذا حال الناس اليوم!!

النداء الإيماني الرابع: وهو حول التحذير من الخيانة، يقول الله تعالىٰ:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓاْ أَمَٰنَٰتِكُمۡ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿٢٧﴾﴾

يعني: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ﴾ بترك الطاعة، وارتكاب المعصية، ﴿وَ﴾ لا ﴿تَخُونُوٓاْ أَمَٰنَٰتِكُمۡ﴾ بإفشاء أسرار المؤمنين للكافرين والمنافقين ﴿وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾ ضرر ذلك الإفشاء للأسرار، والخيانة للأمانة.

ثم يأمر الله المسلم أن يعلم أمرًا هامًا قائلًا:

﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَأَوۡلَٰدُكُمۡ فِتۡنَةٞ وَأَنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجۡرٌ عَظِيمٞ ٢٨﴾

أي: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَأَوۡلَٰدُكُمۡ فِتۡنَةٞ﴾ أي: قد تكون سببًا في وقوع الإنسان في الفتنة؛ حيث إنه لا يدفع الإنسان إلىٰ ترك القتال، أو ارتكاب المعصية، أو إفشاء الأسرار، أو خيانة الأمانة إلَّا رجاء: المال أو الخشية علىٰ العيال، أو حب الأولاد، ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجۡرٌ عَظِيمٞ﴾ فلا ترتكبوا المعاصي، ولا تتركوا القتال في سبيل الله، ولا تفشوا الأسرار، ولا تخونوا الأمانات؛ لتنالوا من الله هذا الأجر العظيم.

النداء الإيماني الخامس: وهو: حول ضرورة التحلي للمجاهدين وغيرهم بالتقوىٰ، يقول الله تعالىٰ:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّكُمۡ فُرۡقَانٗا وَيُكَفِّرۡ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ ٢٩﴾

يعني: إن تتقوا الله أيها المؤمنون، فإن الله عز وجل يعدكم ويمنحكم هذه الأشياء: ﴿يَجۡعَل لَّكُمۡ فُرۡقَانٗا﴾ مخرجًا من ضيقكم، ونجاة من أزماتكم، ونصرًا علىٰ عدوكم. ﴿وَيُكَفِّرۡ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ﴾ أي: يمحوها من صحائفكم. ﴿وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ﴾ ذنوبكم؛ حيث يسترها عن أعين الناس، يوم ﴿تُعۡرَضُونَ لَا تَخۡفَىٰ مِنكُمۡ خَافِيَةٞ﴾ [الحاقة: ١٨].

﴿وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ﴾ علىٰ عباده المؤمنين.

بعد هذه النداءات الإيمانية التوجيهية الخمسة، يكون الحديث الإلٰهي مع النبي ﷺ، حيث يقول ربنا عز وجل:

﴿وَإِذۡ يَمۡكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثۡبِتُوكَ أَوۡ يَقۡتُلُوكَ أَوۡ يُخۡرِجُوكَۚ وَيَمۡكُرُونَ وَيَمۡكُرُ ٱللَّهُۖ وَٱللَّهُ خَيۡرُ ٱلۡمَٰكِرِينَ ٣٠﴾

أي: اذكر يا محمد ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ في مكة؛ حيث كانوا يخطِّطون، ويدبِّرون ﴿لِيُثْبِتُوكَ﴾ أي: يحبسونك ﴿أَوْ يَقْتُلُوكَ﴾ بسيوفهم قتلة رجل واحد، يشتركون فيها ﴿أَوْ يُخْرِجُوكَ﴾ من مكة، منفيًّا بعيدًا عنها وعن أهلها.

﴿وَيَمْكُرُونَ﴾ في ذلك، ويتآمرون عليك، في الخفاء، ولكن ﴿وَيَمْكُرُ اللَّهُ﴾ بهم؛ حيث يعاملهم بمكرهم، فيخفي عنهم ما أعدَّ لهم، ﴿وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ إذْ مُكْرُه أنفذ من مكرهم، وأشد تأثيرًا.

ثم يخبر ربنا عز وجل عن كفر قريش، وعتوهم، وعنادهم، وباطلهم، هم وأمثالهم، فيقول جل شأنه:

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَا إِنْ هَٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٣١﴾﴾

أي: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا﴾ إذا تلي عليهم القرآن عاندوا وتبجَّحوا، و ﴿قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا﴾ هذا من قبل ﴿لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَا﴾ وهم كاذبون في ذلك؛ لأنهم دُعوا ـ قبل ذلك كثيرًا ـ إلىٰ أن يأتوا بسورة واحدة، من مثل هذا القرآن، فلم يفعلوا، ولن يفعلوا.

ولذلك: لمَّا عجزوا، قالوا: ﴿إِنْ هَٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ أي: ما هذا إلَّا خرافات السابقين.

ومن كفرهم وعنادهم، وعتوِّهم كذلك: ما يحكيه عنهم رب العزة:

﴿وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٢﴾﴾

يعني: اذكر وقت أن ﴿قَالُوا اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا﴾ القرآن ﴿هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ﴾ فعاقبنا علىٰ إنكاره.

ثم حدَّدوا نوع العقاب حيث قالوا: ﴿فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ﴾ كما فعلت بأصحاب الفيل، ﴿أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ يعني: أي نوع مؤلم من العذاب.

ويلاحظ: أنهم ـ لعنادهم ـ لم يقولوا: ﴿اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ

﴿عِندِكَ﴾ فاهدنا له، أو وفِّقنا لاتباعه، بل قالوا ما قالوا؛ لشدة جهلهم وعنادهم.

هذا، ولن يستجيب الله لعنادهم، ولا لدعائهم بأن يعذبهم، حيث يقول عز وجل:

﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿٣٣﴾﴾

أي: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ﴾ ولن يعذبهم الله ﴿وَأَنتَ فِيهِمْ﴾؛ لأنك بُعِثتَ رحمة للعالمين، كما أن سُنَّة الله: أن لا يعذِّب قوماً فيهلكهم، ونبي الله بينهم.

وأيضًا: لا يعذبهم الله والمسلمون المستضعفون الذين تخلفوا عن رسول الله ﷺ ولم يستطيعوا الهجرة، ما يزالون بين أظهرهم يستغفرون الله.

ثم هل يستبعدون العذاب؟

﴿وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَمَا كَانُوٓا۟ أَوْلِيَآءَهُۥٓ ۚ إِنْ أَوْلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُتَّقُونَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٤﴾﴾

يعني: ﴿وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ﴾ لا مانع من تعذيب الله لهم، خاصة ﴿وَهُمْ يَصُدُّونَ﴾ النبي ﷺ والمسلمين معه ﴿عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ أن يطوفوا به، ﴿وَمَا كَانُوٓا۟ أَوْلِيَآءَهُۥٓ﴾ إضافة إلىٰ أنهم ليسوا أولياء الحرم وولاة أمره كما يزعمون، إنما ﴿أَوْلِيَآؤُهُۥٓ﴾ الحقيقيون: هم المسلمون ﴿ٱلْمُتَّقُونَ﴾ عن الشرك، الذين لا يصدُّون الناس عنه ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أن لا ولاية لهم عليه.

ثم كيف تكون لهم الولاية؟

﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ ٱلْبَيْتِ إِلَّا مُكَآءً وَتَصْدِيَةً ۚ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٥﴾﴾

يعني: ليس لهم حق الولاية علىٰ البيت؛ لأن صلاتهم عنده ليست صلاة، وما هي إلَّا كما أخبر الله: ﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ ٱلْبَيْتِ إِلَّا مُكَآءً﴾ صفيرًا ﴿وَتَصْدِيَةً﴾ أي تصفيقًا، هل هذه صلاة؟

﴿فَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَ﴾ في الدنيا ﴿بِمَا كُنتُمۡ تَكۡفُرُونَ﴾، ثم في الآخرة تقيمون في هذا العذاب دائمين.

ومن أنباء هؤلاء الكفار أيضًا وأفعالهم ضد الدعوة ما يوضِّحه رب العزة في قوله تعالىٰ:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمۡ لِيَصُدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيۡهِمۡ حَسۡرَةٗ ثُمَّ يُغۡلَبُونَۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحۡشَرُونَ ٣٦﴾

أي: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمۡ﴾ هم ينفقون أموالهم ﴿لِيَصُدُّواْ﴾ ويمنعوا الناس ﴿عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ﴾ الدخول في دين الله، والدعوة من الانتشار، ومبادئ الإسلام من أن تكون معروفة وواضحة.

علىٰ أية حال: ﴿فَسَيُنفِقُونَهَا﴾ وتضيع عليهم، دون تحقيق الهدف، ﴿ثُمَّ تَكُونُ عَلَيۡهِمۡ حَسۡرَةٗ﴾ لضياعها، والندم عليها، وعلى جهودهم في جمعها، وإنفاقها عبثًا، ﴿ثُمَّ﴾ بعد هذا الإنفاق للأموال، وهذا التشويه لمبادئ الدعوة، والمنع للناس عن الدخول في دين الله ﴿يُغۡلَبُونَۗ﴾ حيث لا يتحقق لهم من أهدافهم شيء سوىٰ الحسرة والندامة.

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾ وظلُّوا علىٰ كفرهم وعنادهم فهم ﴿إِلَىٰ جَهَنَّمَ﴾ في النهاية يوم القيامة ﴿يُحۡشَرُونَ﴾ جزاءً لهم، ونكالًا بهم.

وبذلك يكون قد اجتمع علىٰ أعداء الدعوة هؤلاء: ضياع المال، والهزيمة في الدنيا، والعذاب في الآخرة، وكل ذلك ـ بفضل الله تعالىٰ ـ لصالح المؤمنين.

ويلاحظ: أن كل ذلك قد كان، ويكون:

﴿لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلۡخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ وَيَجۡعَلَ ٱلۡخَبِيثَ بَعۡضَهُۥ عَلَىٰ بَعۡضٖ فَيَرۡكُمَهُۥ جَمِيعٗا فَيَجۡعَلَهُۥ فِي جَهَنَّمَۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ٣٧﴾

يعني: ﴿لِيَمِيزَ ٱللَّهُ﴾ أي: يفصل ﴿ٱلۡخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ﴾ أي: الكافر الخبيث من المؤمن الطيب ويبعده عنه، ﴿وَيَجۡعَلَ ٱلۡخَبِيثَ بَعۡضَهُۥ عَلَىٰ بَعۡضٖ﴾ في مكان واحد ﴿فَيَرۡكُمَهُۥ جَمِيعٗا﴾ أي: يجعله متراكمًا طبقات بعضها فوق بعض، ﴿فَيَجۡعَلَهُۥ فِي جَهَنَّمَ﴾ حيث العذاب الشديد، والازدحام الواضح.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ أي: أفراد وجماعات الفريق الخبيث ﴿هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾ الذين خسروا أموالهم في الدنيا، وأنفسهم في الدنيا والآخرة.

ثم يقول ربنا لمحمد ﷺ:

﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغۡفَرۡ لَهُم مَّا قَدۡ سَلَفَ وَإِن يَعُودُواْ فَقَدۡ مَضَتۡ سُنَّتُ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾﴾

أي: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾ يا محمد ﴿إِن يَنتَهُواْ﴾ ويكفُّوا عن كفرهم وعنادهم وتشويههم لمبادئ الدعوة، وحربهم للإسلام، ومنعهم الناس عنه ﴿يُغۡفَرۡ لَهُم﴾ كل ﴿مَّا قَدۡ سَلَفَ﴾ وسبق من أعمالهم السيئة، التي انتهوا عنها، وتابوا منها، ﴿وَإِن يَعُودُواْ﴾ إليها، ولا يتوبون عنها، ويستمرون فيها ﴿فَقَدۡ مَضَتۡ﴾ أي: وجبت فيهم، واستقرت عليهم ﴿سُنَّتُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ وهي العذاب والإهلاك.

ثم يقول ربنا عز وجل للمؤمنين:

﴿وَقَٰتِلُوهُمۡ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتۡنَةٞ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِۚ فَإِنِ ٱنتَهَوۡاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ ﴿٣٩﴾ وَإِن تَوَلَّوۡاْ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَوۡلَىٰكُمۡۚ نِعۡمَ ٱلۡمَوۡلَىٰ وَنِعۡمَ ٱلنَّصِيرُ ﴿٤٠﴾﴾

يعني: إن لم ينتهوا عن كفرهم وعنادهم، وعادوا إلىٰ حرب الإسلام وأهله، فـ ﴿قَٰتِلُوهُمۡ﴾ يا مسلمون ﴿حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتۡنَةٞ﴾ للمسلمين بوجودهم وحربهم لمبادئ الإسلام ﴿وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ﴾ أي: ينتهي كل باطل في الوجود وذلك: لا يكون إلَّا في عز الدولة الإسلامية.

﴿فَإِنِ ٱنتَهَوۡاْ﴾ عن الكفر، وحرب الإسلام والمسلمين، وأعلنوا إسلامهم ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ﴾ يثيبهم علىٰ إسلامهم إن صدقوا.

وبعد كل هذا، ومع كل هذا ﴿وَإِن﴾ لم ينتهوا، مع تلطُّف النبي ﷺ معهم، ثم مع قتالكم لهم و﴿تَوَلَّوۡاْ﴾ وأعرضوا عن الإيمان!! ﴿فَٱعۡلَمُوٓاْ﴾ جيدًا ﴿أَنَّ ٱللَّهَ مَوۡلَىٰكُمۡۚ﴾ وناصركم عليهم، ومعينكم في قتالهم، فثقوا بولايته لكم، حيث إنه ﴿نِعۡمَ ٱلۡمَوۡلَىٰ﴾ لمن تولاه ﴿وَنِعۡمَ ٱلنَّصِيرُ﴾ لمن استنصر به.

ثم قال تعالىٰ:

﴿۞ وَاعْلَمُوٓا أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَٰمَىٰ وَالْمَسَٰكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِاللَّهِ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ ۗ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤١﴾﴾

وفي هذه الآية الكريمة يبيِّن ربنا سبحانه وتعالىٰ: تفصيلات ما شرَّعه من غنائم الحرب، وإباحة خاصة لهذه الأمة الشريفة، من بين سائر الأمم المتقدمة؛ حيث لم تكن هذه الغنائم حلالًا لمن كان قبلنا من الأمم.

والمعنىٰ: ﴿اعْلَمُوٓا﴾ يا أيها الذين آمنوا ﴿أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ﴾ في الحرب، من الكفار أنَّ تقسيمه هكذا أربعة أخماس للمجاهدين، وخمسًا واحدًا للمذكورين في قوله تعالىٰ ﴿فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ﴾ يأمر فيه بما يشاء ﴿وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ﴾ أي: قرابته سهمان من هذا الخمس ﴿وَالْيَتَٰمَىٰ وَالْمَسَٰكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ﴾ ثلاثة أسهم من هذا الخمس، ذلك تقسيم الله فاقبلوه، واعملوا به ﴿إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم﴾ حقًّا ﴿بِاللَّهِ﴾ تعالىٰ، وآمنتم بـ ﴿مَآ أَنزَلْنَا﴾ من الملائكة والقرآن ﴿عَلَىٰ عَبْدِنَا﴾ محمدﷺ ﴿يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ﴾ وهو يوم بدر.

﴿وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ ومن قدرته أنه نصركم يوم بدر، وأنتم قليل علىٰ الكفار، وهم كثير.

ثم فصَّل ربنا للمسلمين بعض أحوال يوم بدر، مما قد يكون خافيًا عليهم، فقال عز وجل:

﴿إِذْ أَنتُم بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا وَهُم بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَىٰ وَالرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنكُمْ ۚ وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ لَاخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَٰدِ ۙ وَلَٰكِن لِّيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنۢ بَيِّنَةٍ ۗ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٤٢﴾﴾

أي: اذكروا وقت أن كنتم ﴿إِذْ أَنتُم بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا﴾ أي: **شط الوادي القريب من** جهة المدينة، ﴿وَهُم﴾ أي الكفار من قريش ﴿بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَىٰ﴾ **أي: شط الوادي**

البعيد عن المدينة من جهة مكة، وكان ﴿ٱلرَّكۡبُ﴾ أي: عير الكفار وقافلتهم ﴿أَسۡفَلَ مِنكُمۡ﴾ أي: بعيدون عنكم مما يلي البحر، ولذلك: لم تتمكنوا منهم، ولم تحصلوا علىٰ ما تريدون من القافلة.

ثم قدَّر الله أن تخرج إليكم قريش؛ لتحاربكم والتقيتم معهم، وكان ذلك علىٰ غير ميعاد ـ للحرب ـ بينكم وبينهم، ﴿وَلَوۡ تَوَاعَدتُّمۡ﴾ معهم علىٰ ذلك ﴿لَٱخۡتَلَفۡتُمۡ فِي ٱلۡمِيعَٰدِ﴾ لأي سبب من جهتكم أو من جهتهم.

﴿وَلَٰكِن﴾ قَدَرَ الله اللقاء علىٰ غير ميعاد بينكم، واستعداد منكم، ﴿لِّيَقۡضِيَ ٱللَّهُ أَمۡرٗا كَانَ مَفۡعُولٗا﴾ وهو نصركم عليهم، وأنتم قليل، وعلى غير أهبة، وبدون سلاح، وفي هذا: كمال النصر، وإعزاز الدين، و﴿لِّيَهۡلِكَ مَنۡ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٖ﴾ من الكافرين مع وضوح الحق، ﴿وَيَحۡيَىٰ مَنۡ حَيَّ عَنۢ بَيِّنَةٖۗ﴾ من المؤمنين مع نصر الله لهم. ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَسَمِيعٌ﴾ للأقوال ﴿عَلِيمٌ﴾ بالأفعال؛ فيعاقب مَن كفر، ويثيب مَن آمن.

ثم يقول الله لحبيبه ﷺ بما فيه إخبار للمسلمين:

﴿إِذۡ يُرِيكَهُمُ ٱللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلٗاۖ وَلَوۡ أَرَىٰكَهُمۡ كَثِيرٗا لَّفَشِلۡتُمۡ وَلَتَنَٰزَعۡتُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ سَلَّمَۚ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ٤٣﴾

أي: اذكر يا محمد والمسلمون معك ﴿إِذۡ يُرِيكَهُمُ ٱللَّهُ﴾ أي: المشركين ﴿فِي مَنَامِكَ﴾ أي: في رؤياك وأنت نائم ﴿قَلِيلٗا﴾ حتىٰ يهون أمرهم، ويضعف في نظرك شأنهم، وتخبر أصحابك بذلك؛ فتقوىٰ عزائمهم.

﴿وَلَوۡ أَرَىٰكَهُمۡ كَثِيرٗا﴾ عددهم ﴿لَّفَشِلۡتُمۡ﴾ أي: خفتم منهم ﴿وَلَتَنَٰزَعۡتُمۡ﴾ بينكم ﴿فِي ٱلۡأَمۡرِ﴾ يعني: في أمر قتالهم، فيقول بعضكم: نقاتل، وبعضكم يقول: لا نقاتل، وتحدث الفتنة، ثم الهزيمة، ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ سَلَّمَۚ﴾ ونجّاكم من التنازع والفشل والهزيمة.

﴿إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ أي: القلوب، وما يحدث لها من تقلُّبات .**أيضًا:**

﴿وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ ٱلْتَقَيْتُمْ فِىٓ أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِىٓ أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِىَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٤٤﴾﴾

يعني: اذكروا وقت اللقاء إذْ قلَّلهم في أعينكم؛ لتثبتوا، وقلَّلكم في أعينهم؛ ليندفعوا إلىٰ ما فيه هلاكهم، وأغرىٰ ـ بذلك- كل فريق بالآخر، ﴿لِيَقْضِىَ ٱللَّهُ أَمْرًا﴾ وهو نصر المؤمنين؛ حيث ﴿كَانَ مَفْعُولًا﴾ أي: مقدَّرًا.

﴿وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾ أي: تنتهي إليه يحكم فيها، وقد حكم لأهل الإيمان بالنصر.

وفي الآيات التالية: يعلِّم الله تعالىٰ المؤمنين آداب اللقاء عند مواجهة الأعداء، قال الله تعالىٰ:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُوا۟ وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٤٥﴾﴾

يعني: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟﴾ يا مؤمنون ﴿إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً﴾ من أعدائكم في الحرب ﴿فَٱثْبُتُوا۟﴾، **وهذا الأدب الأول.**

الأدب الثاني: ﴿وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾ في مواطن القتال، مستعينين به علىٰ عدوكم، ﴿لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ في الحصول علىٰ النصر الذي تريدون. **وأيضًا:**

﴿وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُوا۟ فَتَفْشَلُوا۟ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ۖ وَٱصْبِرُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٤٦﴾﴾

الأدب الثالث: ﴿وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ في كل شيء، وبخاصة في ساحات الجهاد.

الأدب الرابع: ﴿وَلَا تَنَٰزَعُوا۟﴾ لا تختلفوا فيما بينكم، أو مع قادتكم، ولو فعلتم ﴿فَتَفْشَلُوا۟﴾ في تحقيق النصر ﴿وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾ هيبتكم وقوتكم، ويتجرأ عليكم أعداؤكم؛ فيهزمونكم.

الأدب الخامس: ﴿وَٱصْبِرُوٓا۟﴾ في ساحات اللقاء، وعلىٰ مشقات القتال؛ يحقق الله آمالكم. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ بالحفظ والعون والنصر.

ثم يقول ربناموضِّحًا **الأدب السادس** من آداب اللقاء عند مواجهة الأعداء، والقتال معهم:

﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَـٰرِهِم بَطَرًا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ بِمَا يَعۡمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٤٧﴾﴾

يعني: اخرجوا للقتال من أجل إعلاء كلمة الله، ونشر دينه، علىٰ حال من التقوىٰ، والخضوع ﴿وَلَا تَكُونُواْ﴾ كهؤلاء الكفار﴿كَٱلَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَـٰرِهِم﴾ للقتال ومنع الناس عن دين الله ﴿بَطَرًا﴾ أي: فخرًا وغرورًا ﴿وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ﴾ أي: مراءاة للناس؛ حتىٰ يسمع الناس عنهم وعن شجاعتهم ﴿وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ﴾ الراغبين فيه، المحبين له.

﴿وَٱللَّهُ بِمَا يَعۡمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ وهذا منتهىٰ التهديد لهم، والوعيد بعذابهم.

هذا هو حالهم الظاهر في الخروج للقتال، لنعرف نفسياتهم كذلك في هذا الخروج وذلك من قوله تعالىٰ:

﴿وَإِذۡ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَـٰنُ أَعۡمَـٰلَهُمۡ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلۡيَوۡمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمۡۖ فَلَمَّا تَرَآءَتِ ٱلۡفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيۡهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّنكُمۡ إِنِّيٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوۡنَ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَۚ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ﴿٤٨﴾﴾

أي: اذكر أيها المؤمن هؤلاء الكفار وحالهم وقت أن ﴿زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَـٰنُ أَعۡمَـٰلَهُمۡ﴾ التي عملوها مع محمد ﷺ والمؤمنين من الإيذاء، والتعذيب، وهم في مكة، ثم الخروج لقتالهم في المدينة ﴿وَقَالَ﴾ لهم حينها ﴿لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلۡيَوۡمَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ أي: من محمد وأتباعه، ثم قال لهم: ﴿وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمۡۖ﴾ أساعدكم وأعاونكم عليهم، حتىٰ تبيدونهم من الوجود، وتشجَّعوا به، واستجابوا لإغرائه!! وحضروا إلىٰ «بدر» لحرب المسلمين، وإبادتهم.

﴿فَلَمَّا تَرَآءَتِ﴾ التقت ﴿ٱلۡفِئَتَانِ﴾ المسلمة والكافرة، ورأىٰ الشيطان ـ الذي أغراهم ـ الملائكة مع المؤمنين في ساحة القتال ﴿نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيۡهِ﴾ رجع وولَّىٰ هاربًا ﴿وَقَالَ﴾ لهم ـ لمَّا قالوا له: أتخذلنا، وتتركنا في هذه اللحظة، وهذا الحال ـ

﴿إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّنكُمۡ﴾ ومن جواركم، ومن نصرتكم؛ حيث ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوۡنَ﴾ من الملائكة، ثم قال ـ وهو كاذب ـ ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ﴾ أي: أخاف عقوبته.

﴿وَٱللَّهُ﴾ حقيقة ﴿شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ﴾ لمن أراد عقابه من هؤلاء الكفار، أو الشيطان، أو كل عاصٍ لأوامره، مخالف لتعاليمه.

وإذا كان هذا حال كفار مكة يوم بدر ضحك عليهم الشيطان وخذلهم، فماذا كان حال المنافقين بالمدينة؟ يوضِّح ذلك قوله تعالىٰ:

﴿إِذۡ يَقُولُ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمۡۗ وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ﴿٤٩﴾﴾

يعني: اذكر أيها المؤمن هؤلاء المنافقين ﴿إِذۡ يَقُولُ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ من ضعاف الإيمان، وماذا قالوا يوم بدر علىٰ المسلمين!!

لقد قالوا: ﴿غَرَّ هَٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمۡۗ﴾ أي: اغتر المسلمون بدينهم، ونسوا ضعفهم وقلة عددهم، حتىٰ خرجوا بسبب هذا الغرور لقتال أهل مكة الأشداء.

ونسوا تمامًا أنَّ ﴿مَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ﴾ ويعتمد عليه ويَكِل أمره إليه، ينصره الله علىٰ عدوه؛ حيث إن الله تعالىٰ ﴿عَزِيزٌ﴾ ينصر الضعيف المؤمن، علىٰ القوي الكافر ﴿حَكِيمٞ﴾ لا يسوِّي بين عدوِّه ووليّه.

ثم يذكر الله تعالىٰ ما يشفي صدور المؤمنين من الكافرين، إذْ يقول عز وجل:

﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذۡ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَضۡرِبُونَ وُجُوهَهُمۡ وَأَدۡبَٰرَهُمۡ وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلۡحَرِيقِ ﴿٥٠﴾﴾

أي: ﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ﴾ أيها المؤمن ﴿إِذۡ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ حين موتهم في ساحة المعركة، و﴿ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ﴾ الذين أَمَدَّ الله بهم المؤمنين، ﴿يَضۡرِبُونَ وُجُوهَهُمۡ﴾ وجوه المشركين إذا أقبلوا للقتال ﴿وَأَدۡبَٰرَهُمۡ﴾ إذا ولَّوا وهربوا من الساحة، يعني لو ترى ذلك: لرأيت أمرًا فظيعًا.

والملائكة يقولون لهم في هذه اللحظة ﴿ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾ فهذه عيِّنة منه، والعذاب الحقيقي في نار جهنم التي تنتظركم.

ثم تقول الملائكة ـ كذلك ـ لهم:

﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٥١﴾﴾

يعني: ﴿ذَٰلِكَ﴾ هذا الذي يُفعل لكم، علىٰ أيدينا، وأيدي المسلمين من القتل والتعذيب بسبب ﴿بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ من سوء كفركم ومعاصيكم، وأيضًا: بسبب ﴿أَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ حيث إنه عادل، ومن عدله أن يفعل بكم ذلك.

يلاحظ: أن ما فُعِله هؤلاء وما فعل بهم ليس غريبًا، فعادتهم هذه في الكفر..

﴿كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٥٢﴾﴾

أي: عادة هؤلاء في الكفر والعناد ودأبهم ﴿كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ﴾ من الكافرين، وعادتهم.

وذلك: أنهم ﴿كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ كما كفر هؤلاء ﴿فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ ۗ﴾ وأهلكهم بسبب ذنوبهم كما أهلك هؤلاء.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ﴾ لا يعجزه شيء ﴿شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ لمن طغىٰ وتجبَّر وعاند، وظلَّ علىٰ كفره وعناده، حتىٰ مات.

ثم يخبر الله تعالى أن من تمام عدله، وقسطه في حكمه: أنه لا يغيِّر نعمة أنعمها علىٰ أحد إلَّا بسبب ذنب ارتكبه، حيث يقول جل جلاله:

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ ۙ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٣﴾﴾

أي: ﴿ذَٰلِكَ﴾ العذاب، الذي نزل بكفار مكة، والذين من قبلهم: لم يكن إلَّا بسبب ذنوبهم ومعاصيهم، لأن الله جلَّت حكمته ﴿لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ

﴿يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ وهؤلاء غيَّروا أنفسهم إلىٰ الأسوأ، فغيَّر الله النعمة التي أنعمها عليهم بالعذاب الذي نزل بهم، ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ﴾ لما يقوله المكذبون ﴿عَلِيمٌ﴾ بما يفعلون.

تـمـــامًـــا: ﴿كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَـٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ ۚ وَكُلٌّ كَانُوا۟ ظَـٰلِمِينَ ﴿٥٤﴾﴾

يعني: فعلنا بهم؛ لأنهم كذبوا بآيات ربهم من العذاب ما فعلنا بآل فرعون لمَّا كذبوا، حيث أغرقناهم، وما فعلناه بالذين من قبلهم لمَّا كذبوا، حيث أهلكناهم ﴿وَكُلٌّ﴾ أي: أيُّ فريق منهم مثلكم ﴿كَانُوا۟ ظَـٰلِمِينَ﴾.

وهكذا، بعد أن شرح الله أحوال كفار مكة بمناسبة غزوة بدر يوضِّح لنا ـ في الآيات التالية ـ أحوال غيرهم من الكفار، فيقول جل وعلا:

﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٥﴾ ٱلَّذِينَ عَـٰهَدتَّ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِى كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ ﴿٥٦﴾﴾

يقول المفسرون: نزلت هذه الآيات في يهود بني قريظة، حيث كان بينهم وبين رسول الله ﷺ عهد أن لا يحاربوه، ولا يعاونوا عليه أحدًا يحاربه، فنقضوا العهد، وأعانوا ـ في بدر ـ كفار مكة بالسلاح علىٰ قتال المسلمين، ثم قالوا: نسينا، وأخطأنا.

فعاهدهم النبي ﷺ مرة ثانية، ولكنَّهم نقضوا العهد أيضًا في غزوة الأحزاب.

ومن هنا: تبدأ الآيات في تعليم المسلمين أحكام المعاهدات.

والمعنىٰ: ﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ ويصرُّون علىٰ الكفر ﴿فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ ولا يُتوقَّع منهم إيمان.

وهم: ﴿ٱلَّذِينَ عَـٰهَدتَّ مِنْهُمْ﴾ أي: أخذت منهم العهد أكثر من مرة، في أن لا يعينوا عليك وعلىٰ حربك المشركين ﴿ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِى كُلِّ مَرَّةٍ﴾ ويغدرون، ﴿وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ﴾ لا يخافون عاقبة الغدر.

يقول الإمام النسفي ـ رحمه الله: جعل الله الذين كفروا شَرَّ الدواب؛ لأن شَرَّ الناس الكفار، وشَرَّ الكفار: المُصِرُّون علىٰ الكفر، وشَرَّ المُصِرِّين: الناكثون للعهود.

ألا يستحقون العذاب؟ بلىٰ. ولذلك يقول ربنا:

﴿فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي ٱلْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿٥٧﴾﴾

يعني: عندما ﴿تَثْقَفَنَّهُمْ﴾ تقابلهم وتظفر بهم ﴿فِي ٱلْحَرْبِ﴾، ﴿فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ﴾ أي: فاضربهم ضربة قاصمة لظهرهم، مخيفة لغيرهم، تجعلهم عِبرة لمن بعدهم، ﴿لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ يعرفون ذلك، ويعملون لكم ألف حساب.

ويلاحظ: أن هذه الضربة لا تكون إلَّا إذا كان المسلمون علىٰ أعلىٰ درجات التدريب والسلاح والتخطيط، وآداب القتال، وامتلاك كل أنواع القوة.

ولذلك يقول ربنا تبارك وتعالىٰ:

﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَٱنۢبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْخَآئِنِينَ ﴿٥٨﴾﴾

أي: إذا خفت ـ أيها المؤمن ـ من قوم بينك وبينهم عهد أن يغدروا في عهدهم معك: ﴿فَٱنۢبِذْ﴾ أي: اطرح إليهم العهد، بكل وضوح، قبل أن تحاربهم حتىٰ لا تكون خائنًا للعهد مثلهم، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْخَآئِنِينَ﴾ الناقضين للعهود.

ثم يذكِّر الله تعالىٰ المسلمين بعجز الكافرين، حيث يقول جل وعلا:

﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَبَقُوٓا۟ ۚ إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ ﴿٥٩﴾﴾

يعني: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ أنهم ﴿سَبَقُوٓا۟ ۚ﴾ المسلمين ووصلوا إلىٰ حال لا يُغْلَبون عليها، بل يَغْلبون غيرهم معها، حتىٰ وإن كان الواقع يخدع بما هم فيه، فيظن الرائي لهم أنهم سبقوا، وما قولنا ذلك: إلَّا بسبب أن العبرة في السبق: بالغلبة في النهاية، والتعجيز الكامل للأعداء.

وذلك ليس لهم؛ حيث يقول تعالىٰ عنهم ﴿إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ﴾ بل الإعجاز التام، والغلبة الحقيقية لله تعالىٰ وحده.

ثم يوجب الله تعالىٰ ـ في الوقت ذاته ـ علىٰ المؤمنين: امتلاك القوة، حيث يقول لهم:

﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَىْءٍ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٦٠﴾﴾

أي: ﴿وَأَعِدُّواْ﴾ يا مسلمون ﴿لَهُم﴾ أي: لأعدائكم، وامتلكوا ﴿مَّا ٱسْتَطَعْتُم﴾ بأقصىٰ ما في وسعكم ﴿مِّن قُوَّةٍ﴾ في كل شيء، مادية، ومعنوية ﴿وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ﴾ وأدوات القتال، ما يجعلكم بسبب امتلاكه، والتفوُّق فيه ﴿تُرْهِبُونَ بِهِۦ﴾ تُخيفون بسببه ﴿عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ الذين تعرفونهم، ﴿وَ﴾ تخيفون به كذلك ﴿ءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ﴾ من غيرهم، أو من بعدهم، يعادونكم، أو يعادون من بعدكم من المسلمين ﴿لَا تَعْلَمُونَهُمُ﴾ حيث يخفون عنكم عداوتهم لكم، أو لم يوجدوا بعد، بل ﴿ٱللَّهُ﴾ وحده ﴿يَعْلَمُهُمْ﴾.

أيضًا: أنفقوا في سبيل الله من أجل هذا الإعداد الجيِّد لقتال الأعداء ﴿وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَىْءٍ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ قلَّ أو كثُر ﴿يُوَفَّ إِلَيْكُمْ﴾ ثوابه أضعافًا مضاعفة من الله تعالىٰ ﴿وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾ في هذه الحال، لا من الله بالنقصان في الأجر، ولا من الأعداء بالهزيمة في الحرب.

﴿۞ وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦١﴾﴾

أي: ﴿وَإِن جَنَحُواْ﴾ يعني: مالوا ﴿لِلسَّلْمِ﴾ وهو الصلح والمعاهدة: ﴿فَٱجْنَحْ لَهَا﴾ فمل إليها، وصالحهم وعاهدهم، ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾ في صُلْحِك معهم، حتىٰ ولو كنت تخشىٰ منهم المكر في هذا الصلح، حيث إنَّ الله هو العاصم من مُكْرِهم، و﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ﴾ للأقوال ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ بالأحوال، فيعامل علىٰ أساسها.

ويلاحظ: أن الله تعالىٰ بدأ في التحذير ممن ينقض الميثاق، ثم ممن يخشىٰ منه نقض الميثاق، وأمر المسلمين: أن يكونوا في الوضع المناسب لكل الاحتمالات.

ثم صرَّح لهم بالمصالحة مع العدو وعقد المعاهدات ـ إن رغب العدو في ذلك ومال إليه ـ والتوكل علىٰ الله، بعد الأخذ بالأسباب كلها.

ثم قال تعالىٰ بعد هذا كله:

﴿وَإِن يُرِيدُوٓاْ أَن يَخۡدَعُوكَ فَإِنَّ حَسۡبَكَ ٱللَّهُۚ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَيَّدَكَ بِنَصۡرِهِۦ وَبِٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٦٢﴾

يعني: ﴿وَإِن يُرِيدُوٓاْ﴾ بهذا الصلح ﴿أَن يَخۡدَعُوكَ﴾ ويغدروا بك: فلا تخف ﴿فَإِنَّ حَسۡبَكَ ٱللَّهُۚ﴾ كافيك، ومنجيك من غدرهم.

حيث إنه: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَيَّدَكَ﴾ قوَّاك عليهم ﴿بِنَصۡرِهِۦ﴾ لك وأيَّدك كذلك ﴿بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ وهم الأنصار بالمدينة، هؤلاء الأوس والخزرج، الذين كانوا متفرِّقين.

﴿وَأَلَّفَ بَيۡنَ قُلُوبِهِمۡۚ لَوۡ أَنفَقۡتَ مَا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا مَّآ أَلَّفۡتَ بَيۡنَ قُلُوبِهِمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيۡنَهُمۡۚ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ٦٣﴾

يعني: ﴿وَ﴾ لكّن الله ﴿أَلَّفَ﴾ وربط ﴿بَيۡنَ قُلُوبِهِمۡۚ﴾ بعد هذا العداء الطويل الذي كان بينهم، والذي ﴿لَوۡ أَنفَقۡتَ مَا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا﴾ لإزالته وعلاجه ما استطعت، و﴿مَّآ أَلَّفۡتَ بَيۡنَ قُلُوبِهِمۡ﴾، ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ﴾ بفضله ورحمته ﴿أَلَّفَ بَيۡنَهُمۡۚ﴾ وجمع كلمتهم، ووحَّد صفَّهم، وأزال الحقد من قلوبهم.

﴿إِنَّهُۥ﴾ سبحانه ﴿عَزِيزٌ﴾ لا يخدعه أحد ﴿حَكِيمٞ﴾ ينصر مَن يشاء، إذا شاء.

بعد هذه التوجيهات حول العهود والمعاهدات، يأتي حديث هام حول «أدب القيادة ودورها في قضية وفرضية الجهاد»، يقول الحق تبارك وتعالىٰ:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسۡبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٦٤﴾

آيةٌ: فيها بث الثقة والطمأنينة الكاملة في نفس القيادة، قبل الدخول إلىٰ أيّة معركة، أو أية مواجهة مع العدو.

والمعنىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ﴾ يا أيها القائد المسلم ﴿حَسۡبُكَ ٱللَّهُ﴾ يكفيك أنت ﴿وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ في إحراز النصر علىٰ الأعداء، فكن واثقًا به، متوكلًا عليه، آخذًا بالأسباب قدر طاقتك.

ثـم: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَرِّضِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ عَلَى ٱلۡقِتَالِۚ إِن يَكُن مِّنكُمۡ عِشۡرُونَ صَٰبِرُونَ يَغۡلِبُواْ مِاْئَتَيۡنِۚ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٞ يَغۡلِبُوٓاْ أَلۡفٗا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِأَنَّهُمۡ قَوۡمٞ لَّا يَفۡقَهُونَ ٦٥﴾

يعني: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ﴾ يا أيها القائد المسلم ﴿حَرِّضِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ عَلَى ٱلۡقِتَالِۚ﴾ شجِّعهم، وبث الثقة فيهم، وبشِّرهم بنصر الله ووعده، إنه ﴿إِن يَكُن مِّنكُمۡ عِشۡرُونَ صَٰبِرُونَ يَغۡلِبُواْ مِاْئَتَيۡنِۚ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٞ يَغۡلِبُوٓاْ أَلۡفٗا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ أي: أن الجماعة المسلمة إذا صبرت وثبتت في ساحة القتال تهزم من الأعداء عشرة أمثالها.

وما ذلك: إلَّا لأن المسلمين يحاربون لهدف وغاية سامية، وعقيدة صحيحة، ورغبة في نوال مرضاة الله، وأما الذين كفروا، فهم ﴿قَوۡمٞ لَّا يَفۡقَهُونَ﴾ شيئًا من ذلك.

وكان هذا أمرًا للمسلمين: بأن يقاتلوا من الكفار عشرة أمثالهم ويثبتوا في مواجهتهم، مهما كان عددهم، ثم لمَّا ثقل عليهم ذلك: خفَّف الله عليهم بقوله تعالىٰ:

﴿ٱلۡـَٰٔنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمۡ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمۡ ضَعۡفٗاۚ فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٞ صَابِرَةٞ يَغۡلِبُواْ مِاْئَتَيۡنِۚ وَإِن يَكُن مِّنكُمۡ أَلۡفٞ يَغۡلِبُوٓاْ أَلۡفَيۡنِ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٦٦﴾﴾

﴿ٱلۡـَٰٔنَ﴾ البشارة لكم ـ يا مسلمون ـ بالنصر علىٰ الأعداء، ولكن ﴿خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمۡ﴾ في العدد الذي تواجهونه من الأعداء فصار مثلين، بدلًا من عشرة أمثال، ﴿وَ﴾ ذلك لأنّه ﴿عَلِمَ أَنَّ فِيكُمۡ ضَعۡفٗاۚ﴾.

وبـذلـك: ﴿فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٞ صَابِرَةٞ يَغۡلِبُواْ مِاْئَتَيۡنِۚ وَإِن يَكُن مِّنكُمۡ أَلۡفٞ يَغۡلِبُوٓاْ أَلۡفَيۡنِ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۗ﴾ وإرادته، فاثبتوا واصبروا ﴿وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾.

وبعد موقعة بدر أسر المسلمون عددًا من الكفار، واستشار النبي ﷺ أصحابه في شأن هؤلاء الأسرىٰ.

فقال أبو بكر الصدِّيق رضي الله عنه: نأخذ الفدية فيهم، ونطلق سراحهم، وقال عمر الفاروق رضي الله عنه: نقتلهم، وقال غيرهما: غير ذلك.

ومال الرسول ﷺ لرأي أبي بكر رضي الله عنه في أخذ الفدية، وإطلاق سراحهم، وفعل. وهنا: نزل القرآن بخصوص هذا الموضوع، يقول الحق تبارك وتعالىٰ:

﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسۡرَىٰ حَتَّىٰ يُثۡخِنَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنۡيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلۡأٓخِرَةَۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ﴿٦٧﴾﴾

والآية: فيها العتاب لرسول الله ﷺ، والمؤمنين على أخذ هذا الفداء.

والمعنى: ﴿مَا كَانَ﴾ ينبغي ﴿لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ﴾ أي: يأخذ في عملية الأسر أصلًا، ﴿حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ حتى يجهز على الكفار إجهازًا تامًا، ويشيع الرعب في الباقين منهم؛ بما يعز الإسلام وأهله، ثم يكون الأسر بعد تحقيق ذلك، خاصة وأن «بدرًا» أول المعارك، مع الكفر وأهله.

ثم يقول لهم: ﴿تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا﴾ الزائل؛ بأخذكم هذا الفداء، مع أن اللّهَ ﴿يُرِيدُ﴾ لكم السعادة في الآخِرَةِ؛ بإجهازكم عليهم، وقهركم لهم.

﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٌ﴾ يهزم أعداءه ويقهرهم ﴿حَكِيمٌ﴾ يعاتب أولياءه.

ولأن النبي ﷺ وأصحابه اجتهدوا في موضوع الأسرى، ولأنه لا يعاقب على اجتهاد فيه صدق وإخلاص، فهو يقول عز من قائل:

﴿لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٦٨﴾﴾

يعني: ﴿لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ﴾ في أن لا يؤاخذ ويعاقب أحدًا قبل بيان الحكم ﴿لَمَسَّكُمْ﴾ أي: نالكم ﴿فِيمَآ أَخَذْتُمْ﴾ من هذا الفداء، وبسببه ﴿عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾.

وهذا عتاب: على ترك الأَوْلىٰ، وليس على شيء محرَّم.

أي: أنهم أخذوا الفداء في الأسرىٰ، وليس محرَّمًا عليهم، وكان الأَوْلىٰ أن يهلكوهم قتالًا في ساحة المعركة، ولذلك وحتىٰ لا يفهم أنهم أخذوا محرَّمًا عليهم وهي الفدية، فإن الله تبارك وتعالىٰ يقول لهم:

﴿فَكُلُوا۟ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَٰلًا طَيِّبًا ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٩﴾﴾

أي: ﴿فَكُلُوا۟﴾ مباح لكم الأكل دون عتاب أو مؤاخذة ﴿مِمَّا غَنِمْتُمْ﴾ من فداء الأسرىٰ وغيره ﴿حَلَٰلًا طَيِّبًا﴾.

﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ وراقبوه في تصرفاتكم، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ﴾ لما فعلتم من قبل، ومن ذلك موضوع الأسرىٰ ﴿رَّحِيمٌ﴾ حيث أحلَّ لكم كل ما غنمتم.

وبما أن الفدية قد أجيزت، والأكل منها قد أُبيح، فإن الله عز وجل يقول لحبيبه ﷺ بعض التوجيهات التي يبلِّغها لهؤلاء الأسرىٰ، حيث يقول له:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّمَن فِيٓ أَيۡدِيكُم مِّنَ ٱلۡأَسۡرَىٰٓ إِن يَعۡلَمِ ٱللَّهُ فِي قُلُوبِكُمۡ خَيۡرٗا يُؤۡتِكُمۡ خَيۡرٗا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٧٠﴾

إنها دعوة رقيقة مهذبة حكيمة: للدخول في الإسلام.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل﴾ لهؤلاء الأسرىٰ الذين معكم وفي أيديكم ﴿إِن يَعۡلَمِ ٱللَّهُ فِي قُلُوبِكُمۡ خَيۡرٗا﴾ ولا خير أفضل من الإيمان بعد الكفر.

ومعنىٰ الكلام: اجعلوا في قلوبكم خيرًا، يعني: آمنوا، فإذا آمنتم وتشرَّفتم بالدخول في هذا الدين ﴿يُؤۡتِكُمۡ﴾ الله ﴿خَيۡرٗا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمۡ﴾ من الفدية؛ حيث يرزقكم أضعافه في الدنيا، ويثيبكم علىٰ إيمانكم في الآخرة، وفوق ذلك ﴿وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ﴾ كل ذنوبكم ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ علىٰ الكفر وما كان فيه، بعد الإسلام وما يصير معه.

﴿وَإِن يُرِيدُواْ خِيَانَتَكَ فَقَدۡ خَانُواْ ٱللَّهَ مِن قَبۡلُ فَأَمۡكَنَ مِنۡهُمۡۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ٧١﴾

يعني: ﴿وَإِن يُرِيدُواْ﴾ أي: إذا كان هؤلاء الأسرىٰ، لا يريدون الدخول في الإسلام بل يريدون بعد إطلاق سراحهم ﴿خِيَانَتَكَ﴾ بالكيد لك، وحربك: فلا تخش منهم ولا من كيدهم شيئًا، ﴿فَقَدۡ﴾ سبق، و ﴿خَانُواْ ٱللَّهَ مِن قَبۡلُ﴾ بكفرهم من قبل أسرهم.

فماذا حدث؟ ﴿فَأَمۡكَنَ مِنۡهُمۡۗ﴾ أمكن الله منهم بأن أظفرك بهم، ونصرك عليهم وجعلك تأسرهم، وإن عادوا للخيانة لك، والحرب معك: فسيمكِّن منهم مرة أخرىٰ، وهذه بشارة بالنصر الدائم للمسلمين إذا التزموا بدينهم علىٰ الأعداء.

﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ﴾ بهم وبما يفكِّرون فيه ﴿حَكِيمٌ﴾ في بشارتك بالنصر عليهم.

ذكرت هذه السورة في آياتها الأولىٰ بعضًا من صفات المؤمنين الحقيقيين، وكان ذلك في قوله تعالىٰ:

﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتۡ قُلُوبُهُمۡ وَإِذَا تُلِيَتۡ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتۡهُمۡ إِيمَٰنٗا وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ٢ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ٣ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ حَقّٗاۚ لَّهُمۡ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمۡ وَمَغۡفِرَةٞ وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ ٤﴾ [الأنفال: ٢ ـ ٤]

وفي آيات خاتمة هذه السورة: يرينا الله عز وجل نماذج من هؤلاء المؤمنين، ويحدّثنا عنهم، وذلك في قوله تعالىٰ:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍۚ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يُهَاجِرُواْ مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَيْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْۚ وَإِنِ ٱسْتَنصَرُوكُمْ فِي ٱلدِّينِ فَعَلَيْكُمُ ٱلنَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمِۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ٧٢﴾

وفي هذه الآية: يذكر الله تعالىٰ من المؤمنين ثلاثة أصناف، ثم يذكر حكم التعامل مع كل صنف منهم:

الصنف الأول: الذين آمنوا وهاجروا ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ﴾ من ديارهم إلىٰ المدينة ﴿وَجَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾.

الصنف الثاني: الذين آمنوا ونصروا ﴿وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ﴾ إخوانهم المهاجرين ﴿وَّنَصَرُوٓاْ﴾ هم، ونصروا الدعوة ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ الصنفان: المهاجرون والأنصار: ﴿بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍۚ﴾ في النصرة، وفي الميراث أيضًا، حتىٰ نسخ التوارث بينهم بقوله تعالىٰ: ﴿وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾ .[الأنفال: ٧٥]

الصنف الثالث: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يُهَاجِرُواْ﴾ وظلُّوا في مكة، وهؤلاء ﴿مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَيْءٍ﴾ لا ولاء بينكم وبينهم؛ لأنهم لا يستطيعون لكم نصرًا، وما كانوا يتوارثون مع مؤمني المدينة، وذلك الحكم مستمر ﴿حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْ﴾ فيصير حكمهم حكم سائر المسلمين الذين هاجروا من قبل، وإن ظلُّوا في مكانهم ولم يهاجروا، ووقعت بينهم وبين الكفار حرب ﴿وَإِنِ ٱسْتَنصَرُوكُمْ فِي ٱلدِّينِ﴾ أي: باسم الدين الذي يربط بينكم وبينهم ﴿فَعَلَيْكُمُ ٱلنَّصْرُ﴾ والمعاونة لهم.

﴿إِلَّا﴾ إذا استنصروكم ﴿عَلَىٰ قَوْمِۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌۗ﴾ علىٰ عدم الحرب: فلا يلزمكم معاونتهم، بحكم هذا العهد والميثاق.

﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ فالتزموا بشرعه، ولا تتعدُّوا حدوده.

وإذا كان هذا وضع المؤمنين، والتعامل بينهم، فما حال الكافرين والتعامل معهم؟ يقول ربنا سبحانه وتعالىٰ:

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ ﴿٧٣﴾﴾

يعني: أما ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ فـ ﴿بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ يتناصرون فيما بينهم، ويتوارثون فيما بينهم، وليس بينكم وبينهم أية موالاة، ولا أية صورة من صور التقارب والمودة، حتىٰ ولو كانوا أقارب لكم.

﴿إِلَّا تَفْعَلُوهُ﴾ أي: موالاة المؤمنين، وقطع موالاة الكافرين، كما يأمركم الشرع ﴿تَكُن فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾ بإضعاف المسلمين، وتقوية الكافرين.

وأما هؤلاء المهاجرون والأنصار، .فـ ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾ [الأنفال: ٧٤]، يقول الله تعالىٰ:

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوا وَّنَصَرُوا أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٧٤﴾﴾

يعني: **الصنف الأول**: وهم الذين آمنوا وهاجروا، وجهدوا في سبيل الله.

والصنف الثاني: وهم الذين آووا ونصروا ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾؛ لأنهم صدقوا إيمانهم، وحققوه في دنيا الواقع.

وهؤلاء ﴿لَّهُم مَّغْفِرَةٌ﴾ من الله ﴿وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ وهو الجنة.

وهناك صنف رابع من المؤمنين يذكره الله تعالىٰ في قوله عز وجل:

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا مِن بَعْدُ وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَٰئِكَ مِنكُمْ وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٧٥﴾﴾

وهذه الآية: تتحدث عن المؤمنين الذين هاجروا بعد الحديبية، في العام السادس، وحتىٰ عام الفتح.

يعني: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا مِن بَعْدُ وَهَاجَرُوا﴾ بعد السابقين الأولين، الذين هاجروا قبل العام السادس ﴿وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ﴾ يا من هاجرتم قبلًا، ﴿فَأُولَٰئِكَ مِنكُمْ﴾ أيها

المهاجرون قبلًا، والأنصار، حكمهم حكمكم في الموالاة والنصر والمودة، ثم يقول ربنا عز وجل بالنسبة للتوارث بالهجرة، الذي كان يتم بين المسلمين الأوائل:

﴿وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ﴾ أي: الأقارب ﴿بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ﴾ في الإرث من التوارث بالإيمان والهجرة، وذلك الحكم الجديد بخصوص الإرث، الذي ينسخ الحكم القديم، أحق ﴿فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾ اللوح المحفوظ، أو القرآن.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ﴾ ومن ذلك حكم الميراث هذا، فالتزموا به، ولا تخالفوه.

وبهذا انتهت ـ والحمد لله ـ سورة الأنفال.

* * *